

# باحثة جزائرية تعيد رسم صورة المرأة الحسانية بعيدا عن النمطية

## الثقافة الجسدية التي سطرها الذكور تتحكم بالنساء في المجتمع الحساني



محاولات مستمرة لترويض الجسد الأنثوي

والمرأة. وتتناول في الفصل الثاني صورة المرأة في الرواية الحسانية عبر مقاربتها لهذه الصورة في الشعر الحساني وفي شتى مجالات المعرفة والمخيال الشعبي.

وتتناول بلحسن لاحقا في الفصل الثالث موضوع ترويض الجسد الأنثوي عبر عناوين البروز والرقابة الاجتماعية، والجنس بين الرغبة والتخويف والسوائل الجسدية. وتقارب في فصل الكتاب الرابع تقنيات الإغراء عبر مظاهر الجمال والفتنة والتعابير الجسدية، حيث تتناول الدلالة الثقافية للباس والمكياج والحلي والوشم والرسم بالحناء، كما تدرس الإغواء عند المرأة الحسانية.

وتفك الباحثة الجزائرية في خامس فصول مؤلفها قضية الجنسية والرقابة الاجتماعية، مبينة القيود الاجتماعية وهران المكان والزمان كفضاء انتقالي وصباح العروس بين التكمم والأشعار. لتصل في فصل الكتاب السادس إلى مسألة "جدلية الرغبة واللام"، متناولة الجنسية والمقدس والرغبة بين فقدان المخاطرة قد تسقط القصيدة خارج الشعر إلى مستوى التقارير اليومية المفرغة والتي تدعي الالتقاط والفتنة فيما هي لا تذهب أبعد من شكلها السطحي المتشنج والذي يبقى رمان الشاعر تجاوزه.

وفعالية، أم أنها سلطة شكلية أو محدودة تجعل وزن المرأة في هذا المجتمع يرجع إلى الاعتبار الذي يحضن به كل فرد أو فئة من المجتمع رجل، امرأة، طفل، طفلة أو شيخ؟

والتساؤل الذي انطلقت منه هو إمكانية تواجده سلطة نسائية كاملة أمام الهيمنة الذكورية في المجتمع المحلي الحساني الذي يمنح المرأة مكانة معتبرة. ومن ثم فإن الافتراض الذي يطرحه هذا البحث هو عدم منح المجتمع الحساني سلطة كاملة للمرأة مقابل هيمنة ذكورية حقيقية، وأن ما يسمى بالمكانة المعتبرة للمرأة الحسانية هو نوع من المعاملة المجتمعية الخاصة بها مقارنة بوضعها في مجتمعات بطريركية أخرى، معاملة تمنحها صلاحيات وتجعلها محل اهتمام وتقدير.

### ضد الصورة النمطية

تتناول الباحثة في الفصل الأول من الكتاب ملامح النظام الاجتماعي الحساني من ناحية اللسان الحساني واستراتيجية الانتشار وبناء مجتمع "البيضان"، متطرفة إلى مسألة الأصل والتركيب الاجتماعية والبيئة الحسانية

العلاقة، لأن النوع الاجتماعي أو الجندر مسار لا يتوقف، ولأن الفرد دائما في حالة تفاوض مع الآخر. إن الهدف من هذا البحث هو محاولة إنتاج معرفة عن الجنسية انطلاقا من المرأة، خلافا لتلك المقاربات السابقة التي تنطلق من منظور ذكوري، والدافع ليس انحصارا وزاوية مخالفة أساسا، وذلك إسهاما في القضاء على الظاهرة مركبة تقضي تجنّب إسقاطات النظرة المبتورة".

وترى بلحسن أن ما يزيد من صعوبة التوجه الأنثروبولوجي عند دراسته للعلاقة بين النوع الاجتماعي والجنسانية، هو بروز مفهوم الهيمنة، فالهيمنة الذكورية واقع مؤكد في المجتمع البطريركي لأنه مجتمع رجالي محض يتميز بخضوع المرأة وتعبية دورها. لكن ماذا عن المجتمعات التي تمنح المرأة مكانة معتبرة، بالأخص المجتمع الحساني؟ فمن المعروف والشائع عن هذا المجتمع أنّ للمرأة فيه مكانة حقيقية، لكن هل لديها سلطة؟ وإذا كانت لديها سلطة فهل هي سلطة واسعة

الأساسية، هذه الطقوس التي تعتبر معرفتها مرحلة ضرورية لفهم الممارسات الاجتماعية المختلفة والتي تعتبر الممارسة الجنسية من أهمها". وتتسند على أن هذه الطقوس الانتقالية تساهم في إنتاج معرفة حقيقية لظاهرة الجنسية عبر مراحلها الأساسية، خاصة تلك المتعلقة بالخروج من حال أو مكانة اجتماعية والدخول إلى أخرى، مع انتقال الفرد من مرتبة اجتماعية إلى أخرى.

وتلفت بلحسن إلى أن النوع الاجتماعي/الجندر يعتبر من المفاهيم السوسيو-أنثروبولوجية الراهنة التوظيف في العلوم الإنسانية، بينما تعتبر الجنسية من المفاهيم المعقدة لأنها متشابكة الجوانب (اجتماعية، نفسية، ثقافية) بارتباطها في المخيال الاجتماعي بالتأوهات المسكوت عنها. وتتابع إنه "لن الصعوبة بمكان الحكم على العلاقة الحقيقية التي تربط بين الذكورة والأنوثة في مجتمع ما بدون الوقوف على أدق تفاصيل هذه

للمرأة الصحراوية مكانة كبيرة داخل المجتمع الحساني لما تحظى به منذ القدم بالتقدير والاحترام الذي رسخته الأعراف والتقاليد، حيث تعتبر المرأة في الموروث الثقافي الحساني إنسانة خلقت من أجل التجميل والإكرام. لكن هذه الصورة تخضعها الباحثة الجزائرية مباركة بلحسن للمساءلة عبر بوابة الأنثروبولوجيا لتكشف عن خفايا صورة المرأة الحسانية عبر الثقافة الشعبية والأشعار والموروث وغيرها.

الجزائر - يعتبر كتاب "المرأة الحسانية وثقافة الجسد" للباحثة الجزائرية مباركة بلحسن دراسة ميدانية في حقل الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية لمجتمع بقي مهمشا من قِبل الباحثين ومن الدراسات الأكاديمية عموما. وتُشير الباحثة في كتابها الصادر عن دار الوطن اليوم، إلى أنها أرادت من هذه الدراسة تبيان دور المرأة، ومعرفة مكانتها بإبعادها الاجتماعية والرمزية، انطلاقا من تحديد وظيفة البُعدين الجسدي والجنساني.

### البحث الميداني

وترى مباركة بلحسن أنّ النظرة الأحادية لمكانة المرأة أخفت إلى حد بعيد الرؤى الأخرى والحقائق المتعلقة بتصور المرأة الحسانية في حد ذاتها لمكانتها ومكتسباتها. وحاولت الباحثة الوقوف على مكانة المرأة الحسانية في مجتمع محلي ذي خصوصية ثقافية بالاعتماد على مقاربات نظرية وتقنيات البحث الميداني في حقل الأنثروبولوجيا، من أبرزها تقنية الملاحظة، وهو الأمر الذي مكّنها من مسالة العديد من الظواهر الخاصة بالمرأة ومكانتها وثقافة جسدها.

وقسمت بلحسن كتابها إلى ستة فصول تضمّن ملامح النظام الاجتماعي الحساني من لسان وبنية وتركيبه الاجتماعية، وصورة المرأة في المؤنثة الحسانية من شعر وأوزان، وإشكالية الرقابة الاجتماعية وهران المكانة الاجتماعية وعلاقتها بالزواج.

### الذكورة والأنوثة

وتبين الباحثة أنّ هذا المجتمع محل دراستها هو فضاء اجتماعي ورمزي لمكانة معتبرة للمرأة، مع الموازنة مع سلطة ذكورية حقيقية، تعتقد أنه بإمكاننا تحديد ملامحه وتمييزها ومعرفة ما من خلال مقارنة سوسيو-أنثروبولوجية تتعلق بعدد جوهري للحياة اليومية، وهو السلوك الجنسي الذي لا يمكن ملاحظته بالمعنى الدقيق للكلمة لأنه يمس ممارسة متعلقة بالحميمية.

وتضيف "خيارنا هو مقارنة هذا السلوك في تجلياته الفردية والجماعية من خلال مفهوم الطقوس الانتقالية

### الباحثة تقف على مكانة المرأة الحسانية في مجتمع ذي خصوصية ثقافية معتمدة مقاربات نظرية وتقنيات البحث الميداني

وتبين الباحثة أنّ المجتمع الحساني من بين المجتمعات العربية القليلة التي حافظت على مقوماتها الهوياتية التقليدية، رغم ظاهرة التحديث الذي عرفته في النصف الثاني من القرن العشرين خاصة، حيث أنّ هذا المجتمع

## «ديك الجن» قصائد معاصرة بلا زخارف لغوية

والحساسية الشعرية. ألم يعلن نرفال ذات يوم "أن الشعر يهرب من القصيدة، ويستطيع أن يوجد من دونها". ووفق هذا التمشي يحاول درويش فتح أساق جديدة لقصيدته، رغم ما في ذلك من مخاطرة بلغة الشعر وإيقاعه، مخاطرة قد تسقط القصيدة خارج الشعر إلى مستوى التقارير اليومية المفرغة والتي تدعي الالتقاط والفتنة فيما هي لا تذهب أبعد من شكلها السطحي المتشنج والذي يبقى رمان الشاعر تجاوزه.

### الشاعر يهتم في هذه المجموعة بالبعد البصري ويتناغم البياض والسواد مدونا يوميته في قصائد بأسلوب مشهدي

ويذكر أنّ سمير درويش أصدر سابقاً 18 مجموعة شعرية، آخرها "يكتف جرائمه على نحو رومانتيكي"، كما أصدر روايتين والكتاب الأول من سيرته الذاتية بعنوان "العشر العجاف - من الهزيمة إلى النصر". وأعدّ كتابين وقدمهما أحدهما عن الروائية النعمانية جوجة الحارثية بعنوان "تفكيك مركزية السرد.. قراءات في (سيدات القمر)"، والثاني عن الشاعر المصري الراحل رفعت سلام.

مع تطور نظريات التلقي وتقدم الدراسات السيميائية للظواهر الفنية، وما عرفته كذلك اللغة الشعرية من تحولات كبيرة أغنت ألياتها وشفراتها، مثلما وسعت مفهوم الشعر في حد ذاته، وهو ما خلق تكاملا بين الفنين استفاد منه السيميائيون والشعراء أيضا على غرار سمير درويش الذي طوع أسلوب السينما لكتابة قصيدته.

وتحلينا المجموعة الجديدة لدرويش إلى تساؤل كان أطلقه الناقد والكاتب البحريني أمين صالح حيث قال "هل الشعر، أو الطاقة الشعرية، موجودة حصراً في القصيدة فقط، القصيدة كلغة، كقواعد، كنمط، كعناصر، كطريقة كتابة أو طباعة؟ ألا يوجد الشعر في أشكال وأنماط أخرى كالنثر والتشكيل والموسيقى والنحت والفيلم والمسرح؟ ليس بإمكان النثر أن يكون مشحوناً بالشعر، حيث الكلمات مكتنزة بطاقة سرية، وحيث التيار الشعري الغامض يسري على امتداد العبارات غير المنسجمة، ظاهريا، وغير الموزونة؟". ويبين صالح أنّ الكثيرين يعتقدون أنّ القصيدة وحدها تحتكر صفة الشعر، وأن الطاقة الشعرية موجودة حصريا في القصيدة فقط، رغم أنّنا نجد المئات من القصائد التي تنفتح على الروح الشعرية

لا تفصل عن جماليات قصيدة النثر، تلك التي تعطي للشكل أهمية توازي أهمية المضمون، وهو ما يظهر في توزيع الكتل على الصفحات.

ويأخذ سياق وتشكيل قصيدة النثر منحى جديدا على الأقل في قصائد درويش ليس على مستوى تشكيلها فقط، بل أيضا على مستوى موضوعاتها، فيما تخلو جل قصائده من أية زخارف فنية أو حتى صور بلاغية جميعها تنحو منحى السرد اليومي واليوميات التي يصف بها حالته. هكذا تأتي وكأنه يقدم تقريرا عن حالته، وفي مشهدياتها تنمنا قصائد درويش في مجموعته الأخيرة مع عوالم السينما، وهو ما كرّسه الشاعر منذ مجموعته "يكتف جرائمه" على نحو رومانتيكي" الصادرة في وقت سابق عن دار ميريت للنشر بالقاهرة.

وتتقاطع القصائد مع عوالم أفلام شهيرة في السينما الأمريكية والعلمية، وتأخذ عناوينها من أسماءها، ما يصنع الديوان بصيغة جمالية واحدة على مستويي الرؤية والتشكيل الفني، وهي سمة غالبية في معظم أعمال الشاعر، ما يحيلنا إلى العلاقة الوثيقة بين الشعر والسينما في طريقة تشكيل المشهد الشعري.

الشعراء، فتاتي تسمية كل قسم بعنوان "قصيدة" مع إسنادها إلى مضاف إليه يكشف محتواها ويبرز دلالاتها في بعض الأحيان، في استعادة لجمال القصيدة ومكانتها، وقبلها استقلاليتها. وهذه قصيدة النبع، تلك قصيدة الولع فالورع إلى الغزو والبوح والدخان والحنان والمرض، وصولا إلى البعث، وهو ما نراه جليا أيضا في مجموعته الجديدة.

تنتم لغة المجموعة الصادرة عن دار ميريت للنشر بالقاهرة مستهله سلسلة "كتاب ميريت" الثقافية، بكونها قريبة من اللغة اليومية التي يسميها المتلقي في البيت ومكان العمل والمدرسة والجامعة، ويقرأها في الصحف ومواقع الإنترنت، بما ينسجم مع المشاهد التي رصدها الشاعر من مفردات يومه: الشوارع والسيارات والأترية والأصوات والأرصفة وغيرها، مواصلا تجربته المنحازة إلى اليومي والهامشي والعاير، يقول الشاعر "لا أكتب القصيدة وأنا هائم كالمجانبي/ بل حين أسك مقبض بندقيتي كقطاع الطريق/ لهذا سكتون قصيدة عن الحُب/ هذا المحبوب بصراخ وشتائم مجانية/ وحدائق تنبت فوق الخدود".

ويهتم درويش في هذه المجموعة التي تحتوي على 32 قصيدة مشهية دون عناوين بالبعد البصري، بتناغم البياض والسواد في صفحات الكتاب، وبالعلاقة بين السطور كوحدة جمالية، بوصفها بُعدا أساسيا في عملية التلقي

القاهرة - ينشغل سمير درويش في مجموعته الشعرية الأخيرة "ديك الجن" بموضوع كتابة الشعر والتداعيات التي ترافقها، إذ تنكر كلمة "قصيدة" بشكل لافت في ثنايا الكتاب، وكان الشاعر يعيش داخل لحظة الإبداع، ويتشارك مع القارئ المحتمل تفاصيل صغيرة يعيد



الشاعر يبني رؤياه بأشياء بسيطة (لوحة للفنان محمد العامري)